الباب الثانى والثلاثون

الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تُتلقى من رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ مجمع الآداب ظاهرًا وباطنًا. وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه فى الحضرة بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ البصَرُ وَمَا طَغَى﴾(١).

وهذه غامضة من غوامض الآداب التى اختصَّ بها رسول الله ﷺ.

أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال: أعرض عمّا سوى الله وتوجّه إلى الله، وترك رواء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها، والسموات والدار الآخرة بحظوظها، فما التفت إلى ما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف على الغائب فى إعراضه، قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾(٢) فهذا الخطاب للعموم، و ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾ إخبار عن حال النبى ﷺ بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم فكان ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾ حالَه فى طرف الإعراض، وفى طرف الإقبال تلقّى ما ورد عليه فى مقام قاب قوسين بالروح والقلب؛ ثم فرّ من الله تعالى حياءً منه وهيبة وإجلالاً، وطوى نفسه بفراره فى مطاوى انكساره وافتقاره؛ لكيلا تنبسط النفس فتطغى؛ فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس. قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(٣).

والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطًا من المنح استغنت وطغت، والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط فى البسط يسد باب المزيد، وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب؛ فموسى عليه الصلاة والسلام صحّ له فى الحضْرة أحد طرفى ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾وما التفت إلى ما فاته ﴿وَمَا طَغَى﴾ مُتأسفًا لحسن أدبه، ولكن امتلأ من المنح واسترقت النفسُ السمعَ وتطلعت إلى القسط والحظّ؛ فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ما وصل إليها، وضاق نطاقها فيتجاوز الحدّ من فرط

---

(١) آية رقم ١٧ من سورة النجم.

(٢) آية رقم ٢٣ من سورة الحديد.

(٣) آية رقم ٦ من سورة العلق.

البسط وقال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾[١] فمُنع ولم يطلق فى فضاء المزيد؛ وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام.

وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية؛ فكل قبض يوجب عقوبة؛ لأنَّ كلَّ قبض سدٌّ فى وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط فى البسط، ولو حصل الاعتدال فى البسط ما وجبت العقوبة بالقبض، والاعتدال فى البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبى ﷺ من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار، فذلك الفرار من الله إلى الله، وهو غاية الأدب، حظى به رسول الله ﷺ فما قوبل بالقبض، فدام مزيده، وكان قاب قوسين أو أدنى.

ويشاكل الشرحَ الذى شرحناه قولُ أبى العباس بن عطاء فى قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال: لم يره بطغيان يميل، بل رآه على شرط اعتدال القوى.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه، ولا إلى مشاهدتها وإنما كان مشاهدًا بكليته لربّه: يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل بن عبد الله.

ويؤيد ذلك أيضًا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال: أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن منصور الصفار النيسابورى قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال: سمعت أبا نصر بن عبد الله بن على السراج قال: أخبرنا أبو الطيب العكى، عن أبى محمد الحريرى، قال: التسرُّع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلةٌ، والوقوف على حدّ الانحسار نجاة، واللياذ بالهرب من علم الدنو وُصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلّف، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيّز الإقبال مساءة، والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه بُعد، والاستسلام عند التلاقى جراءة، والانبساط فى محل الأنس غرة. وهذه الكلمات كلّها من آداب الحضرة لأربابها.

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف.

وفى قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ وجه آخر ألطف مما سبق: ما زاغ البصر، حيث لم يتخلّف عن البصيرة ولم يتقاصر، وما طغى، لم يسبق البصرُ البصيرة فيتجاوز حدّه ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة. والظاهر مع الباطن، والقلب مع القالب، والنظر مع القدم، ففى تقدّم النظر على القدم طغيان، والمعنى بالنظر علم، وبالقدم حال القالب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانًا، ولم يتخلّف القدم عن النظر فيكون تقصيرًا، فلما اعتدلت الأحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره، فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله، ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره وأتى البراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء فى حديث المعراج، فكان البراق بقالبه مشاكلاً لمعناه ومتصفًا بصفته لقوة حاله ومعناه.

وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلّفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى فى بعض السموات فمن هو فى بعض السموات يكون قوله: ﴿أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ تجاوزًا عن حدّ القدم، وتخلفًا للقدم عن النظر، وهذا هو الإخلال بأخذ الوصفين من قوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فرسول الله ﷺ حمل مقترنًا قدمه ونظره فى حجال الحياء والتواضع، ناظرًا إلى قدمه، قادمًا على نظره، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديًا حدّ القدم تعوّق فى بعض السموات كتعوّق غيره من الأنبياء، فلم يزل ﷺ متجلّس[1] حجاله فى خفارة أدب حاله حتى خرق حجب السموات فانصبت إليه أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابًا حجابًا حتى استقام على صراط ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فمرّ كالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف، وهذا غاية فى الأدب ونهاية فى الأدب.

قال أبو محمد بن رويم، حين سئل عن أدب المسافر، فقال: لا يجاوز همّه قدمه، فحيث وقف قلبه يكون مقرُّه.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة، قال: أخبرنا عمر بن أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال: حدثنا القاضى أبو محمد يحيى بن منصور قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قال: حدثنا محمد بن رزام الأيلّى قال: حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى قال: حدثنا محمد بن نصير،

---

(١) متكلّف: يقال تجلّس إذا تكلف الجلوس، والحجال: القيد.

عن عطاء بن أبي رياح، عن ابن عباس، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: «قال يا موسى إنه لن يرانى حىّ إلا مات ولا يابسٌ إلاّ تدهده، ولا رطب إلاّ تفرّق، إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم».

ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى: الانبساط بالقول مع الحقّ ترك الأدب.

وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض، ليس هو على الإطلاق؛ لأن الله تعالى أمر بالدعاء. وإنما الإمساك عن القول، كما أمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحقّ مقامًا فى القرب وأذان له فى الانبساط[1]، فلما بسط انبسط وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2] لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقّرات، ولهذا مثال فى الشاهد. فإنى الملك المعظم يسأل المعظّمات، ويحتشم فى طلب المحقرات؛ فلما رفع بساط حجاب الحشمة صار فى مقام خاص من القرب يسأل الحقير كما يسأل الخطير.

قال ذو النون المصرى: أدب العارف فوق كلّ أدب؛ لأنَّ معروفَه مؤدّب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه وتعالى: مَن ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت: الأدب أو العطب.

وقول القائل هذا: يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجوب محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس، ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار، ويكون معنى العطب: التحقق بالغناء، وفى ذلك العطب نهاية الأرب.

وقال أبو علىّ الدقّاق فى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3] لم يقل: ارحمنى؛ لأنه حفظ أدب الخطاب.

وقال عيسى عليه السلام : ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[1] ولم يقل: لم أقل؛ رعاية لأدب الحضرة.

---

(١) وفى بعض النسخ هذه الزيادة بعد قوله فأذن له فى الانبساط: وقال أطلب منى ولو ملحًا لعجينك.. إلخ.

(٢) آية رقم ٢٤ من سورة القصص.

(٣) آية رقم ٨٢ من سورة: الأنبياء.

وقال أبو نصر السراج: أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلّة الالتفات إلى الخواطر والعوارض، والبوادى والعوائق، واستواء السرّ والعلانية وَحُسْن الأدب فى مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور.

والأدب أدبان: أدب قول، وأدب فعل؛ فمن تقرّب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب.

قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وقال أيضًا: الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنِف.

وقال النورىّ: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وقال ذو النون: إذا خرج المريد عن حدّ استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء

وقال ابن المبارك أيضًا: قد أكثر الناس فى الأدب، ونحن نقول: هو معرفة النفس وهذه إشارة منه إلى أن النفس هى منبع الجهالات، وترك الآداب من مخامرة الجهر؛ فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد. «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلاّ ويقمعها بصريح العلم. وحينئذ يتأدّب، ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر.

---

(١) آية رقم ١١٦ من سورة المائدة